مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

قصر البحر البرتغالي بمدينة آسفي من الوكالة التجارية إلى الثكنة العسكرية قراءة في حيثيات التأسيس

المصطفى العياطي
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
باحث دكتوراه كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة القاضي عياض – المملكة المغربية

مُلَخّص

يفصح لنا التراث بصنفيه المادي وغير المادي عن جوانب متعددة من بنيات الماضي، في أبعادها السياسية والاقتصادية والثقافية والفنية والذهنية والتقنية وغير ذلك، وهذا ما تنصرف جهود الباحثين المهتمين إلى تفحصه واستنطاقه من ذخائر الماضي. وتعتبر الآثار المعمارية إحدى أهم روافد التراث المادي الملموس بمختلف البلدان، وهي بالنظر إلى أحجامها الكبيرة تكون حاضرة بقوة –كوثائق جيدة–في ذاكرة المجتمعات، لما ترتبط بها من أحداث وطنية مجيدة ومواجهات دامية وتحولات حاسمة، مثل بقايا المدن والقلاع والقصبات والحصون والجسور والأبنية العامة. تتمحور مضامين هذه الورقة حول إحدى أهم المآثر المعمارية الشهيرة بمدينة آسفي المغربية، ويتعلق الأمر بقصر البحر البرتغالي، ليس من زاوية الحديث عن مكونات هذه المنشأة ونمطها المعماري المميز، وإنما من ناحية تحديد تاريخ تأسيسها وما اتصل بها من وظائف متباينة بتباين المراحل السياسية التي مرت منها المدينة والبلاد. سنعمل على رصد البدايات الأولى للتأسيس في ظل تضارب النصوص التاريخية، التي منها ما اعتمد تاريخ بداية البناء تاريخًا للتأسيس ومنها ما اعتمد تاريخ اكتمال البناء هو تاريخ التأسيس، فضلاً عن تعدد التسميات وتعدد الروايات، وكلها –في تقديرنا– "لخبطة" ناجمة عن عدم ضبط كرونولوجيا تشييد هذه المنشأة، التي تختزل فترة مهمة من تاريخ مدينة آسفي، بدأت أواخر القرن الخامس عشر وانتهت في النصف الأول من القرن السادس عشر.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٧ مايو ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٣٠ يونيو ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

آسفي؛ الاحتلال البرتغالي؛ وكالة تجارية؛ قصر البحر البرتغالي؛ الآثار والتراث المادي والتشفهي.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.292283.1134

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

المصطفى العياطي. "قصر البحر البرتغالي بمدينة آسفي من الوكالة التجارية إلى الثكنة العسكرية: قراءة في حيثيات التأسيس".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد السادس والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٤. ص ١١٥ – ١٢٢.

Corresponding author: elayaty.elmostafa@gmail.com
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّارِيخِية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

تعتبر القصور والقلاع والقصبات والحصون من ذخائر التراث المعماري الذي تزخر به المملكة المغربية، في مقارنتها مع باقي بلدان الشمال الأفريقي، مما يرمز الى عظمة الدول والأسر التي تعاقبت على حكم هذا البلد عبر التاريخ، حيث استخدمت هذه المنشآت في تكريس السلطة وضبط الدينامية الاجتماعية لمختلف المجموعات البشرية في المجال، سواء بالمدن والسواحل أو بالممرات الجبلية والصحاري. وتضاف الى هذه الذخائر قصبات القياد والشيوخ وزعماء الزوايا والأعيان بالبوادي، حيث ما تزال هذه الأبنية بدورها بمثابة وثائق تشهد على تاريخ المناطق الموجودة بها. ويعتبر قصر البحر [Château de mer]، إحدى المنشآت التي تؤثث المشهد المعماري الأثري بمدينة آسفي والتي تناولتها بالوصف العديد من كتب الرحلات الأجنبية، كوثيقة مادية تحيل المشاهد فورًا على المشترك الإنساني المغربي-البرتغالي. نتساءل عن تاريخ بناء هذه المنشأة وعن سياقه التاريخي بمدينة آسفي؟ وعن المراحل التي قطعتها من حيث الإنشاء؟ وعن الوظائف والأدوار التي أنيطت بها خلال النصف الأول من القرن السادس عشر؟

أولاً: آسفي من الولاء الى الاحتلال

عاش المغرب ما بين ١٤٦٥م (تاريخ انهيار الحكم المريني) و١٥٥٤ م (تاريخ انهيار الدولة الوطاسية وظهور الأشراف السعديين) حالة من التضعضع جعلت الدولتين الابيريتين تركزان نظرتهم التوسعية على المغرب، فأقدمتا على احتلال عدد من الثغور البحرية المغربية ومن ضمنها ثغر اسفي. وإذا كانت الفترة الفاصلة بين ١٤١٥ م و١٤٧٢م قد خضعت خلالها مدن مملكة فاس كسبته وطنجة وأصيلا والعرائش والقصر الكبير وترغة للبرتغاليين باستخدام القوة العسكرية، فان مدينة آسفي التي كانت الى غاية ١٤٦٠م تابعة اسميا لمملكة مراكش[١]، كانت تربطها علاقات تجارية مع الأوروبيين وبالأخص إسبانيا والبرتغال، كدولتين قويتين متنافستين حول ما تختزنه المدينة وإقليمها من ثروات، ولربما كانت هذه العلاقة التجارية قائمة منذ ١٤٥٨م، حيث "حاول الأمير هنري الملاح ربط علاقات تجارية مع المدن المغربية الموجودة جنوب رأس كونتي ومع آسفي خصوصًا"[٢] مما أتاح لهما كنتيجة للاحتكاك التجاري بالمدينة فرصة الاطلاع على أوضاعها الداخلية، التي كانت حينئذ مضطربة ومفككة نتيجة الصراع على الحكم وكثرة الدسائس والتنافر بين الأعيان المحليين، وكذا بسبب انعدام تبعية آسفي كليًا لإدارة مراكش.

ابتداءً من سنة ١٤٦٠م الى غاية ١٤٨٨م حكم مدينة آسفي أحد الأعيان من أسرة آل فرحون القوية، وهو احمد بن فرحون الذي ما أن شعر بالدسائس تحاك ضده من طرف عدد من الفرقاء المحليين حتى قام "ببعث أحد أقربائه الى البرتغال، ويتعلق الأمر بيحيى الزيات الذي كلفه بإعلان الولاء للتاج البرتغالي، ملتمسًا الحصول على مساعدة من الملك خوان الثاني مقابل ذلك الولاء"[٣]، وهي الزيارة التي تم عقبها إبرام اتفاقية بين الملك البرتغالي ومسؤولي مدينة آسفي.

استمرت اسفي تحت الولاء البرتغالي في أجواء مشوبة بالحذر الى غاية تنصيب إيمانويل ملكا على البرتغال، والذي بدوره جدد تلك الاتفاقية على التوالي سنتي و١٤٩٦م، و١٥٠٠م، ورغم ذلك استمرت المناكفات السياسية داخل المدينة بين مناصري البرتغال بزعامة عبد الرحمان بن فرحون ابن أخ احمد بن فرحون وبين القائد احمد بن يحيى الزيات الذي كان يناصر الوجود الإسباني. استطاع عبد الرحمان أن يصل الى منصب حاكم اسفي خلفا لعمه احمد بدعم من البرتغاليين، واستمر في مركز القيادة الى أن لقي حتفه بذريعة قضية متعلقة بالشرف سنة ١٥٠٦م، وهي السنة التي بزغ خلالها نجم شخصيتين جديدتين على الساحة الاسفية ويتعلق الأمر بعلي بن واشمان ويحيى أوتعفوفت اللذان ما فتئا يقدمان نفسيهما كبديل لعبد الرحمان، وكلاهما أعلنا فيما بعد عن ولائهما للبرتغال. سيتكرس الصراع على الزعامة بالحاضرة بين الرجلين إلى أن آل حكم المدينة الى يحيى اوتعفوفت الذي كان يطمح —منذ زمن بعيد –الى منصب قائد اسفي، وذلك ما تحقق له بدعم وإغراء من البرتغاليين الذين قاموا بتقديم بعض الهدايا له ليساعدهم على دخول المدينة دون صعوبات ولا نفقات كبيرة، وطلبوا منه أن يسمح لهم ببناء حصن على

شاطئ البحر يحفظون فيه بضائعهم في أمان، بعد أن تعرضوا للنهب بعد موت حاكم المدينة عبد الرحمان، فسمح لهم اوتعفوفت بذلك مقابل أداء الإتاوات المفروضة عليهم.

في غفلة من ساكنة المدينة ومسؤوليها، بدأ البرتغاليون ينقلون الأسلحة خلسة الى هذا الحصن داخل براميل الزيت وضمن البضائع، إلى أن توفرت لهم الذخيرة الكافية للهجوم والدفاع، فاستغلوا بعض الظروف لإحداث اضطراب من اجل الانقضاض على المدينة، حين قام غلام أحد التجار البرتغاليين بطعن جزار مسلم، فثارت العامة على البرتغاليين وتوجهت نحو الحصن لنهبه فبدأ البرتغاليون يطلقون الأعيرة النارية وقتلوا أكثر من ١٠٠ مسلم. ورغم ذلك حاصر المسلمون الحصن البرتغالي عدة أيام، إلى أن ظهر أسطول برتغالي مجهز بأنواع من الأسلحة الخفيفة والثقيلة وخمسة آلاف من الجنود ومائة فارس بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٥٠٧م. ووصلت سفن أخرى في أول يناير من سنة ١٥٠٨م فارهب هذا الأسطول عامة الناس وتركوا المدينة ملتجئين الى جبال بني ماجر ولم يبق إلا أو تعفوفت وأسرته الذين وافقوا على ببناء الحصن، فدخل البرتغاليون المدينة وسيطروا عليها وتم تعيين أوتعفوفت حاكما على بواديها لجمع الضرائب وإرسالها الى ملك البرتغال[٤].

هكذا نستنتج بان نكبة مدينة اسفي المتمثلة في خضوعها للاحتلال الأجنبي كانت داخلية بالأساس، عكس مدن الشمال التي خضعت باستخدام القوة العسكرية. لقد تحولت مدينة اسفي خلال الفترة المذكورة الي حلبة للنزاعات والفتن بين عناصر نخبتها مما أدى الى سقوطها في براثن الأجانب بكل سهولة، حيث فرضت عليها شبه حماية برتغالية[٥]. وقد استعان البرتغاليون في بسط سيطرتهم على اسفي بمنعدمي الضمير من الساكنة المحلية، وكذا بالعنصر العبري في شخص الربي إبراهام بن زميرو، فسار منطق الأحداث إذن في اتجاه خضوع المدينة للاحتلال البرتغالي رسميًا سنة ١٥٠٨م.

ثانيًا: قصر البحر (من الوكالة التجارية الى القلعة العسكرية)

١/٢-مرحلة ما بين ١٤٩١م و١٥٠٨م

تعود فكرة إنجاز منشأة تجارية على الطرف الشمالي من جرف "أموني"[٦]، إلى تاريخ عرض أحمد بن فرحون ولاء مدينة اسفي للتاج البرتغالي سنة 1488م، على عهد الملك خوان الثاني، حين وافق هذا الأخير على العرض وكانت من ضمن شروطه على ذلك القبول "... لزوم تشييد وكالة تجارية لصالح التجار البرتغاليين..."[٧] وقد تم فعلاً بناء هذه الوكالة سنة ١٤٩١م في عهد حاكم آسفي احمد بن علي بن فرحون والتي عهد بتدبيرها الى أحد الفرسان ببلاط الملك المدعو فيرناندیز دو ألمادا [Fernandes de Almeda]، ولأن البرتغاليين –منذ البداية –لم تكن نيتهم الحلول بآسفي لأجل الاحتلال الجغرافي للمدينة ونواحيها فحسب، وإنما كانوا يرمون الى نشر المسيحية وفرضها على ساكنة اسفي، فقد انشؤوا الى جانب الوكالة المذكورة كنيسة مؤقتة، تولى الإشراف عليها أحد الرهبان يدعى دييغو [Diego].

لم تكن تلك البناية في البداية سوى دارًا بناها أحمد بن فرحون لصالح التجارة البرتغالية بالمدينة، كي يستخدم فضائها لإجراءات التعشير وكمستودع لتخزين البضائع. ويستفاد من بعض الوثائق والنصوص أن البرتغاليين قاموا باقتناء تلك الدار واستعمالها "قبل أن يبنوا محلاً أخر بما يمكن تسميته بيتا للمضاربات التجارية أو تعشير البضائع [Factorerie]"[٨]. وهي الدار التي ما فتى ء البرتغاليون يستغلون فرص الصراع بين الفرقاء المحليين، كي يدعمونها ويزيدون في تحصينها تارة بالأبواب وتارة بالأبراج، وخصوصًا خلال الفترة ما بين ١٤٩٨م و١٥٠٧م.

ارتبطت بهذه الدار عدة أحداث ووقائع أعطت الانطباع إلى كونها شكلت ملاذ آمنا للمخالفين والثائرين، حيث لجأ إليها عبد الرحمان ابن أخ أحمد بن فرحون فارًا من "أنصار إسبانيا الذين كانوا عازمين على الانتقام منه"[٩] ، كونه جاهر أمام الملأ بمناصرته للبرتغال. كذلك –وهذا ما أشرنا إليه أعلاه– فحينما آل حكم المدينة الى يحيى اوتعفوفت، ستكون نفس الدار

موضوع طلب البرتغاليين كي يسمح لهم ببناء حصن على شاطئ البحر لحفظ بضائعهم، بعد أن تعرضت للنهب والإتلاف من طرف السكان، عقب اغتيال عبد الرحمان بن فرحون -نفسه -بالمسجد الكبير. ستكون هي نفس الدار التي أعرب احمد بن يحيى الزيات سنة ١٥٠٢م - في سياق تسابقه على منصب القيادة مع يحيى اوتعفوفت- عن استبدالها بأخرى يشيدها على الأملاك التابعة للوكالة بداخل المدينة، في حالة تسميته قائدًا على آسفي بدلا من غريمه[١٠]. وكان قد طلب ممثلو الملك البرتغالي -في أوج النزاع والضغينة بين عبد الرحمان بن فرحون ويحيى الزيات-من ساكنة مدينة آسفي الموافقة على فتح باب في الجدار[١١] المواجه للبحر من تلك الدار، تارة بذريعة أن القائد البرتغالي (الوكيل) ومساعديه يمكنهم في حالة الخطر أن يلوذوا إلى الأشرعة على البحر، وتارة بذريعة إنجاد الزيات ضد هجوم ما يمكن أن يقع من لدن أعدائه" [١٢]. علمًا أن هذا الذرائع كلها صيغت في سياق مخطط برتغالي سري، كان يرمي الى استبدال عبد الرحمان بالزيات[١٣].

في أوج الصراع وانعدام الثقة -مرة ثانية -بين علي بن واشمان ويحيى اوتعفوفت، تحققت لجاك دو ازامبوجا [Jaque de Azambouja] عدة مكاسب ومن جملتها أنه "حصل لفائدة مواطنيه على دار بجانب البحر، وعلى برج أو برجين من اقوى الأبراج بالمدينة لضمان امنهم، مما كان يعتبر ذا أهمية بالأساس في حالة اندلاع الاضطرابات"[١٤]، وهنا ظهرت أولى الملامح ذات الصبغة العسكرية لهذه المنشأة.[١٥]بمناسبة الوجود العسكري البرتغالي المكثف و المفاجئ في مياه اسفي، رفض اوتعفت في البداية " أن يسلم لأزامبوجا الدار المحصنة المنفتحة على الشاطئ بذريعة أن هذا الإجراء يعتبر مضرا [١٦]". ونتصور الى هذا التاريخ أن تلك الدار أصبحت بعد الإضافات الأخيرة، مزودة بأبواب وظيفية وأبراج محصنة، ولم ينقصها إلا القليل لتصبح "حصنًا حقيقيًا"[١٧] حسب تعبير بيدرو دياش[Pedro Dias].

نجح البرتغاليون من قبل في جعل هذه البناية خارجة عن سلطة آل فرحون[١٨] وكذا عن سلطة القائد يحيى اوتعفوفت لاحقًا، بعد الهدايا التي أغدقوا بها على هذا الأخير، والاستقبال الكبير الذي خصص له بالبرتغال من طرف الملك. سمح إذن اوتعفوفت للبرتغاليين باستعمال الدار -كما أشرنا الى ذلك أعلاه – لكن مقابل أداء بعض الإتاوات. استغل البرتغاليون غفلة سكان المدينة وكذا حالة الصراع الحاد بين الزعماء المتنافسين، فبدأوا ينقلون الأسلحة خلسة الى ذلك الحصن الذي نفترض انه لم يكن مكتمل البناء بعد، والذي انطلاقا منه انقض البرتغاليون سنة ١٥٠٧م على اسفي مستعملين الأعيرة النارية، مستغلين حادثة قتل أحد الجزارين المسلمين على يد مساعد أحد التجار البرتغاليين. كان تعزيز البرتغاليين لقدراتهم بمزيد من الأسلحة الخفيفة والثقيلة والجنود في ٢٤ ديسمبر ١٥٠٧م وفي الأول من يناير١٥٠٨م، قد عجل بسقوط المدينة والسيطرة عليها، أما أوتعفوفت فعينه إيمانويل الأول حاكمًا على بوادي مدينة آسفي من أجل جمع الضرائب وإرسالها الى ملك البرتغال[١٩]، وسيهبه كذلك مدينة سرنو القريبة من آسفي كمكافئة على هذه المهمة، حيث اقطعها وإيراداتها له ولورثته من بعده، وكان ذلك بموجب رسالة مؤرخة في ٢٥ غشت١٥١٤م[٢٠] . منذ ذلك الحين انطبعت تلك الدار في وعي ساكنة آسفي ووجدانهم بكونها وكرا للدسائس ومنطلقا للاعتداءات البرتغالية على اسفي، وكانوا كلما ثارت ثائرتهم يتوجهون نحوها بهدف نهبها أو حرقها أو محاصرتها وطرد من فيها.

٢/٢-مرحلة ما بين ١٥٠٨ و١٥١٦م

بعد إحالة العجوز ازامبوجا على التقاعد من منصب قبطانية اسفي التي قضى بها ثلاث سنوات (١٥٠٧-١٥٠٩)، تم تنصيب مكانه المسمى نونو فيرناندس دي اتايد[Nono Fernandes De Ataide] سنة ١٥١٠ م - وهو أشهر القباطنة البرتغاليين ، عرف الاحتلال البرتغالي في المغرب في عهده ازهى الفترات[٢١]. وما أن حل هذا الأخير بآسفي حتى وجد نفسه أمام عدد كبير من الانشغالات ومن ضمنها إعادة تنظيم الإدارة المحلية بالمدينة وإعادة تمتينها وتحصينها أمام الهجومات التي يمكن أن يقوم بها الأعداء المفترضون. لذلك اعطى نونو فيرناندس الأولوية لبناء أسوار منيعة ومتميزة "رغبة منه في جعل رعاياه في مأمن من أي هجمة طارئة، بحيث أصدر أوامره بأن تكون الأسوار

الجديدة صروحا متينة وثابتة عبر الزمن"[٢٢] . ومن جملة المشاريع التي نفذها الى جانب تشييد الأسوار بالحجارة الرملية المشدودة بالجير، " أمر نينو فرناندیس دو اتايدFernandes De Ataide] [Nono سنة ١٥١٥م المهندس بير كومير[Pierre Komer] ببناء برج الجمرك بالقصبة العالية[٢٣] ، وكان حسب ما يبدو بمثابة آخر قطعة تنتظر الإنجاز"[٢٤]، مما يدل على أن هذه القصبة قد أدرجت ضمن اهتمام البرتغاليين كذلك، نظرًا لموقعها المهيمن على ظهير المدينة، ونظرًا لكونها توجد في مقدمة المنشآت المهددة من ناحية الشرق بهجومات رجال القبائل الثائرين الرافضين للوجود البرتغالي. أما المنشأة البحرية موضوع مقالنا هذا، فقد استمرت تقوم بالأدوار المنوطة بها كدار للتعشير وكملاذ للهاربين المستأمنين ومقر للاستخبار. ولذا فإننا نرجح أنها بقيت على حالها دون إجراء أي تعديلات، وكانت –حينئذ – مكونة من الفيتورا [Feitora] ومن مخازن التوريد والتصدير وبجانبها البرجان اللذان تم تشييدهما في عهد ازامبوزجا.

٣/٢-مرحلة ما بين١٥١٦و١٥٢٤م

لم يعد البرتغاليون خلال هذه الفترة يهتمون بترميم المباني القديمة مكتفين بتدعيمها وترقيعها وإحاطتها بأبراج تنتمي الى العصور الماضية، بل انصرفت أنظارهم الى ضرورة تشييد بناءات تستجيب لمتطلبات المرحلة لان البنية المعمارية الموجودة آنذاك لا ترتقي لان تكون منظومة دفاعية، مطابقة للحاجيات التي باتت تفرضها بعض الاختراعات، مثل المدفع الذي" ألزم البنائين العسكريين بأن يسندوه بكتل اقوى بكثير، وأكثر مكانة ومقاومة"[٢٥]. لقد استدعى البرتغاليون لأجل ذلك أمهر البنائين البرتغاليين الذي اشتهروا في بلادهم بالبناء على المنوال المنويلي الضخم الذي يعتمد على الحجر الرملي المنجور. ويعتبر "قصر البحر" واحدا من منشآت هذه الفترة، و"كان تصميمه من تخطيط وإبداع المهندس البرتغالي المدعو بويتاك[Boytac] المشهور بمنشآته العمرانية لفائدة العائلة المالكة"[٢٦].

انطلقت أشغال بناء "قصر البحر" في عهد القبطان البرتغالي ماسكاريناس [Mascarenhas] (١٥١٦-١٥٢٢) وامتدت هذه الأشغال حتى عهد الحاكم البرتغالي ساكوطو[Sacoto] (١٥٢٢-١٥٢٥)، حيث استغرق البناء به مدة لا تقل عن ثمانية أعوام. قد يتساءل المرء عن سبب تباطء وتيرة الأشغال في بناء هذا الحصن، وللإجابة عن هذا التساؤل هناك فرضيات كثيرة ،نذكر منها ما أورده الباحث أبو القاسم الشبري من أن "لتدرج في التدخل البرتغالي كان محكوما بظروف تحكيم كنيسة روما[٢٧]، في الفصل بين تقسيم المناطق المحتلة والمزمع احتلالها بالمغرب وأفريقيا بين القوتين المتصارعتين على شواطئنا وهما مملكة البرتغال ومملكة قشتالة".[٢٨] بينما يرجع الباحث كريدية إبراهيم تثاقل الأشغال في بناء الحصن المذكور إلى أسباب أخرى، كقلة عدد البنائين البرتغاليين وكذا انشغال الحامية البرتغالية بالبناء في اكثر من ورشة على مستوى المدينة بكاملها، "ومن ذلك بناء الأسوار والكنيسة والديوانة بالإضافة الى حصن "قصر البحر"[٢٩].كما يمكن أن تكون حالة الاضطرابات الناجمة عن غارات القبائل وكذا الاضطرابات التي تلت تدخل الوطاسيين في المنطقة، وتلك التي أعقبت مقتل القبطان اتايد بالتزامن مع المجاعة، كل ذلك كلف الاحتلال مبالغ مالية إضافية جعلت أشغال البناء تتوقف من حين لآخر.

تم اختيار موضع بناء القصر على القسم الشمالي من جرف "أموني" المطل على المريسة القديمة بالفضاء الذي احتضن في البداية بناء دار التعشير الأولى وملحقاتها، مما يدعو الى التساؤل عن مصير تلك البنايات: هل تم الاحتفاظ بها عن طريق إدماجها ضمن تصميم القصر الجديد؟ أم أنها تم التخلص منها لأسباب تقنية وتوسعية؟ وهو نفس التساؤل الذي طرحه جوزيف كولفن بقوله: "سيظل من المستحيل تكوين فكرة عن وضعية المساكن القديمة للوكالة التجارية أو عن إقامات القبطانات البرتغاليين، إذ أننا لا نعرف اليوم شيئًا عن ذلك"[٣٠]. غير أن الباحث كريدية إبراهيم، يرجح أن تكون منشأة "قصر الجديد" [Casteillo Novo] التي وسعت مساحة ٣٩٠٠متر مربع، قد "ابتلعت معها ارض الدار والوكالة التجارية القديمة [Feitora] وزادت عليها."[٣١]. بل أنه يرجح أن تكون الغرف الخمس المطلة على فناء هذه المنشأة العسكرية من الناحية

الغربية والشمالية والجنوبية "أنها كانت في الماضي جزء من الفيتورا[Feitora]"[٣٢] وأنها "تحولت في عهد الاحتلال البرتغالي لإقامة جند الحامية ولخزن المؤن والسلع"[٣٣]. ولا نملك -من ناحيتنا- من الحجج ما يسعفنا في تأكيد هذه الافتراضات، فلربما التأكد من صحتها يبقى رهينا بما يستخلصه العمل الاركيولوجي من نتائج، ذلك ما خلص اليه جوزيف كولفن -نفسه- بقوله: ".... يتعين علينا رفع الأنقاض للوصول إلى الهدف المنشود."[٣٤]

٤/٢-مرحلة ما بين ١٥٢٤ و١٥٤١م

يرجح أن تكون وظيفة التعشير وخزن البضائع والإشراف على التوريد والتصدير وتهريب الأسلحة قد استمرت، كوظيفة أصيلة أنيطت بشكل مبكر بهذه المنشأة، والتي استمرت تؤديها دون انقطاع طيلة المراحل الثلاث: الدار/الحصن/ القصر الجديد، وذلك الى غاية جلاء البرتغاليين عن اسفي وازمور سنة ١٥٤١م. ذلك أنه منذ تاريخ استكمال بنائه سنة ١٥٢٤م، أصبح "القصر الجديد" متعدد الوظائف والمهام كما تعددت مجالات تدخله أداريًا وتجاريًا واستخباراتيا، وعسكريا أيضا، كونه حسب بيدرو دياش[Pedro Dias]، أصبح يمثل نظامًا دفاعيًا أقرب الى القلاع المانويلية في المملكة البرتغالية نفسها".[٣٥]

الوظيفة التجارية:

بحكم إطلالته المباشرة من الناحية الشمالية على فضاء مرسى اسفي، أنيطت بـ "القصر الجديد"، علاوة على مهمة التعشير والعمليات الجمركية، مراقبة الميناء والأشراف الدقيق على حركية الصادرات والواردات ومحتوياتها. كما أن "القصر الجديد" مكن البرتغاليين من التحكم في التجارة المحلية وفي أسواق المدينة، لعل أهمها آنذاك السوق الكبيرة[٣٦] الموجودة بالجوار.

الوظيفة الإدارية:

أنيطت بـ "القصر الجديد" دور مقر الإدارة البرتغالية المحلية لتدبير شؤون مدينة آسفي والمناطق المحيطة بها، خصوصًا وأن قياد الحامية البرتغالية الذين تعاقبوا على حكم آسفي كانوا يقيمون بداخله، وقد اتخذوا الطابق العلوي من البرج المستطيل مقرًا لأعمالهم، وكانوا يتمتعون بصلاحيات واسعة على اعتبار انهم "يمثلون رأس السلطة الإدارية والعسكرية والقضائية"[٣٧] التي فوضها الملك البرتغالي لهم. ونظرًا لأنه كان مستقر الحاكم البرتغالي "فقد كان المقر الرئيسي للاجتماعات والمفاوضات ومصدر كل التعليمات والأوامر العسكرية العُليا والخطيرة"[٣٨]

الوظيفة الاستخباراتية:

بحكم قربه من المدينة ولكونه على المستوى المعماري يمثل واسطة العقد ونقطة التقاء [Les passerelles] مسارات المماشي الموجودة في اعلى الأسوار المحيطة بالمدينة، المرتبطة بالأبراج وكذا بالقصبة العالية، فقد أصبحت ل "القصر الجديد " وظيفة الاستخبار وجمع المعلومات وتتبع كل التفاصيل عن حركية مسلمي اسفي. كما أنيطت به مهمة الكشف الاستباقي عن تحرشات المتمردين بضواحي المدينة والقبائل، عن طريق الاستعلام والتواصل بالأبراج والقلاع البعيدة [٣٩] التي اندثرت غالبيتها ولم يتبق منها-في وقتنا الحالي - سوى "برج الناضور" في شمال المدينة.

الوظيفة العسكرية:

مكن "القصر الجديد" الذي تعكس هندسته بصمات المحيط الأطلسي[٤٠]، بما يتوفر عليه من أبواب ونوافذ منفتحة على البحر- فضلا عن توجيهه وواجهته المزودة بالمدافع – الجنود البرتغاليين من تتبع ومراقبة ومقاومة الاعتداءات التي يمكن أن تأتي من البحر[٤١]"، وكذا تلك التي يمكن أن يكون مصدرها البر من جنوب غرب المدينة. وبما أنه منشأة عسكرية منيعة مزودة بأبراج عالية وأسوار مدعمة، فقد أسعف ذلك المحتلين في اللجوء إليه والتحصن بداخله ضد الغارات القبلية. أيضا، ونظرًا لكون هذا الحصن المكتمل الذي أصبح أكثر مناعة بما تميز به من مقومات التحصن والتمترس ومجهزًا بالأسلحة الخفيفة وعدد من المدافع[٤٢]، فقد "كان بحصانته وقوته يعوض عن نقص عدد جند الحامية البرتغالية"[٤٣] بالمدينة.

خَاتِمَةٌ

هكذا بدا لنا أن منشأة "قصر البحر" تختزل لوحدها جزء من تاريخ مدينة آسفي زمن الاحتلال البرتغالي وهي شاهدة على كل تفاصيل هذا الاحتلال من مبتدئه الى خبره. تم تشيدها تدريجيًا بموازاة حالة تقدم خطط العمل السياسي الذي كان يعتمد-بالأساس-على بث الضغائن وزرع عدم الثقة بين أعيان اسفي المتنافسين. ذلك انه كلما أسفرت أعمال الخداع والكيد عن نتائج إيجابية في اختراق جبهة الفرقاء السياسيين بالمدينة، كلما تقدمت أشغال البناء أو استأنفت أشغال الإضافة والتدعيم وفتح الأبواب -كما أسلفنا -إلى أن سنحت الظروف ببناء بناية مكتملة وفق تصميم هندسي، وهي التي سميت بـ "القصر الجديد" تمييزًا لها عن القصبة العالية القديمة. شكلت إذن هذه البناية التي شرع في تشييدها عمليا في ظروف من التربص بالمدينة وأهلها منذ سنة ١٤٩١، نقطة ارتكاز تمهيدي بهدف تثبيت البرتغاليين أقدامهم بالمدينة وظهيرها، كما لعبت في الأخير نقطة لجلائهم سنة (١٥٤١)، حيث منها تم الهروب الكبير عبر البحر والجلاء النهائي عن اسفي، فكان بذلك آخر منشأة استودعوها الى الأبد.

المَلاحِق

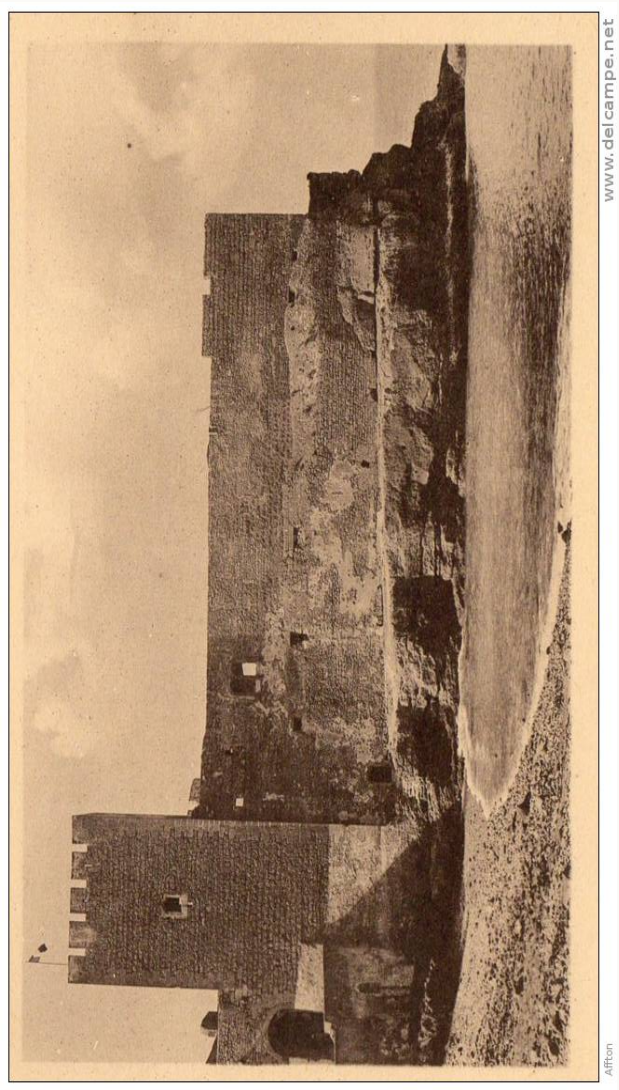

قصر البحر البرتغالي بأسفي
ويظهر العلم الفرنسي في اعلى برجه الشمالي زمن الحماية الفرنسية على المغرب
المصدر: www. delcampe. net

الإحالات المرجعية:

(١) كانت مراكش حينئذ خاضعة لحكم مولاي ناصر بوشنتوف الوطاسي.

(٢) بوشرب أحمد، **دكالة والاحتلال البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور (قبل ٢٨غشت١٤٨١-اكتوبر١٥٤١)**، الطبعة الثانية، الدار البيضاء ٢٠١٣، ص٩٤.

(٣) كولفن جوزيف، **اسفي في عهد الاحتلال البرتغالي ١٤٨٨-١٥٤١**، ترجمة علال ركوك-محمد الشيخ، مراجعة وتقديم: أحمد بنجلون، منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م، ص٢٣-٢٤.

(٤) الوزان محمد بن الحسن الفاسي، **وصف أفريقيا**، الجزء الأول. ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي/ محمد الأخضر. دار الغرب الإسلامي الطبعة الثانية ١٩٨٣. ص١٤٩-١٥١

(٥) كريم عبد الكريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية. دراسة تحليلية لاهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية**. منشورات المؤرخين المغاربة. مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء. الطبعة الثالثة ١٤٢٧ه/٢٠٠٦، ص٦.

(٦) اسم تطلقه ساكنة مدينة آسفي على الحافة القارية المقابلة للمحيط الأطلسي، الممتدة على مسافة تقدر بنحو خمس مائة متر من الجهة الغربية.

(٧) كريم عبد الكريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**. دراسة تحليلية لاهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية .....، الصفحة ٢٤.

(٨) الشبري أبو القاسم، **دكالة وايالته جهة دكالة** –عبدة: تاريخ وآثار. الطبعة الأولى، الجديدة ٢٠١٢م، ص٥٦.

(٩) كولفن جوزيف، مرجع سابق، ص ٢٦

(١٠) كولفن جوزيف، مرجع سابق، ص ٢٧.

(١١) يرجح أن يكون ذلك الباب الصغير الذي لايزال موجودا الى الآن، وهو باب موجه إلى الشمال.

(١٢) كولفن جوزيف، مرجع سابق، الصفحة ٢٨.

(١٣) سيتكرر نفس السلوك البرتغالي القايم على بث الضغائن بين أعيان المدينة، مع الثنائي يحيى اوتعفوفت وعلي بن واشمان كما سنشير الى ذلك فيما يلي.

(١٤) كولفن جوزيف، مرجع سابق، ص٣٤.

(١٥) كريدية إبراهيم، **قصر البحر**. ضمن سلسلة: تعرف على مآثر مدينتك وجهتها العدد :١، طبعة يوليوز-غشت ٢٠١٠، ص١٧.

(١٦) هامش رقم ٢٩، الصفحة ٣٥ من كتاب "**اسفي في عهد الاحتلال البرتغالي ١٤٨٨-١٥٤١** لمؤلفه "جوزيف كولفن، مرجع سابق.

(١٧) دياش بيدرو، **البرتغاليون في المغرب، عمارة وعمران من ١٤١٤ إلى ١٧٦٩**، ص١٦٥(أورده الأستاذ كريدية إبراهيم في كتابه: قصر البحر، ص١٣).

(١٨) نفسه، الصفحة نفسها.

(١٩) الوزان محمد بن الحسن الفاسي، مصدر سابق. ص١٤٩-١٥١.

(٢٠) نفسه، هامش رقم، ٦٣، ص١٥٣.

(21) David Lopes, Les Portugais au Maroc [article] Revue d'Histoire Moderne & Contemporaine Année 1939 14-39 pp 337-368.

(٢٢) كولفن جوزيف، مرجع سابق، ص٦٧.

(٢٣) يُقصد بها البناية المسماة عند عامة ساكنة المدينة بـ "بيرو عرب" والتي تتخذها وزارة الثقافة حاليا كمقر لمندوبيتها الإقليمية بمدينة آسفي.

(٢٤) كولفن جوزيف، مرجع سابق، ص٦٨.

(٢٥) نفسه، ص ٦٧.

(٢٦) كريدية، إبراهيم، **قصر البحر**. ضمن سلسلة: تعرف على مآثر مدينتك وجهتها العدد :١ .....، ص١٩.

(٢٧) يتعلق الأمر بمعاهدة "توردیسیلاس" سنة ١٤٩٤م بين البرتغال وإسبانيا. وكان اتفاقا دوليا حول الحقوق في الأراضي المحتلة الجديدة.

(٢٨) الشبري أبو القاسم، مرجع سابق، ص٥٦.

(٢٩) كريدية براهيم، مرجع سابق، ص١٨. نقلاً عن:
Said Chemsi, Castello Novo de Safi dit : Château de mer portugais, Marrakech 2002, p.31.

(٣٠) كولفن جوزيف، مرجع سابق، ص ٧.

(٣١) كريدية إبراهيم، مرجع سابق، ص ٢٠.

(٣٢) كريدية إبراهيم، مرجع سابق، ص٢٧.

(٣٣) نفسه، الصفحة نفسها.

(٣٤) كولفن جوزيف، مرجع سابق، ص ٧٠.

(٣٥) أورده الأستاذ إبراهيم كريدية، في كتابه: **قصر البحر**. ضمن سلسلة: تعرف على مآثر مدينتك وجهتها العدد :١، ص٦٣ نقلاً عن: المؤرخ البرتغالي بيدرو دياش [Pedro Dias]، **البرتغاليون في المغرب، عمارة وعمران من ١٤١٥ الى ١٧٦٩م**".

(٣٦) كريدية إبراهيم، **قصر البحر**. ضمن سلسلة: تعرف على مآثر مدينتك وجهتها.....، الصفحة٤٣.

(٣٧) نفسه، ص٤١.

(٣٨) نفسه، ص٤٢.

(٣٩) يذكر من ضمن هذه الأبراج تلك التي ماتزال طوبونيميا المجال المحيط باسفي تحتفظ بذكرها، كألبرج الذي كان يوجد بمنطقة راحة الريح "وبرج موكة" وبقايا برج بمنطقة الساحل غير بعيد عن "حصن كاسين"، وبرج أخر قريب من دوار لحمر بجماعة سيدي عيسى ما تزال الساكنة تذكره باسم "البريجة" وآخر يوجد بـ "حصن زرول" القريب من سبت جزولة ناهيك عن "برج اكوز" وغيرها.

(٤٠) لمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع، يرجى مراجعة كتاب "محاولة في كشف بصمات المحيط الأطلسي في تاريخ وعمارة حاضرة آسفي" لمؤلفه الأستاذ كريدية إبراهيم.

(41) Romeo Carabelli. L'héritage portugais au Maroc. Mutual Héritage - Citeres, 2012. ffhalshs-01257864, p78.

(٤٢) ذكره المجهول البرتغالي خلال زيارته للمدينة زمن المنصور الذهبي ووصفه بـ "الحصن، يسمى القصبة، ترى على ابوابه الأسلحة الملكية البرتغالية وتوجد على السور الى جهة البحر بعض المدافع"، انظر: مجهول برتغالي، **وصف المغرب أيام مولاي أحمد المنصور**، نقله عن الفرنسية، محمد مزين وعبد الرحيم بنحادة، الطبعة الأولى، مراكش ١٩٩٥، ص٣٥.

(٤٣) كريدية إبراهيم: **قصر البحر**. ضمن سلسلة: تعرف على مآثر مدينتك وجهتها، العدد :١ .....، ص٤١.